مركبات (ما)
دراسة نحوية قرآنية

د. خميس فزاع عمير
جامعة الأنبار –كلية الآداب

المقدمة :

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد :

فإن قوام البيان القرآني يعتمد على اختيار مفرداته وانتقائها لمراعاة النسق المعجز في الجملة أو الصورة القرآنية في عقد جمالي يبدأ من وظيفة الكلمة مفردة إلى وظيفة الجملة ثم إلى تآلف الجمل القرآنية بعضها ببعض في لوحات أو مشاهد جمالية ، وقد شهدت العقود الأخيرة إقبالاً شديداً على تناول الدراسات القرآنية ولا عجب في ذلك فهو امتداد لما سبقه إذ ان علماء العربية قد اعتنوا بدراسة الظواهر القرآنية خدمة لكتاب الله الخالد .

أمام ذلك البحر الزاخر وجدت نفسي تواقة إلى الولوج في أعماقه ، ولا غرابة في ذلك فإننا نجد بعض العلماء متعصباً لأسلوب القرآن أشد التعصب ملتحما به أشد الالتحام لأنه يعي ويدرك أن وجود العربية مرتبط بوجوده . فكان هذا العنوان ((مركبات (ما) دراسة نحوية قرآنية)) ، وكنت مدفوعاً إلى ذلك بعوامل لعل أهمها الرغبة الأكيدة في المشاركة في مجال الدراسات القرآنية لشعوري بأن هذا الاتجاه من الدراسة لا يزال في أمس الحاجة إلى مزيد من الجهود والعناية والاهتمام ، فمعين القرآن في هذا الميدان بحاجة إلى جهود الدارسين.

ولقد حاولت هذه الدراسة أن تتناول مركبات ما في ضوء معطيات النص القرآني الكريم مستعيناً كاتبها بالله ، مستنيراً بتراث علمائنا الأفذاذ ، مفيداً من نظراتهم وملاحظاتهم ودقائق تأملاتهم .

ولما فرغتُ من جمع مادة البحث بدأت بتركيب خطته ويشتمل على مقدمة ذكرتُ فيها سبب اختيار الموضوع ، ثم تناولت المركبات بحسب الترتيب الهجائي مستفتحاً بـ(أما) ومنتهياً بـ(مهما) وهي :

(أمَّا ، إمّا ، إنّما ، أينما ، أيّاما ، حيثما ، ربّما ، كلّما ، لوما ، مهما) تلك عشرة كاملة أُقدمها بين يدي القارئ عسى أن تحملَ سداداً في الرأي وعدلاً في الحكم وإنصافاً في القول .

ويقوم منهج البحث على النصوص القرآنية في دراسة هذه المركبات ، ثم رأي العلماء من نحاة ومفسرين ، ثم رأي الباحث ، ثم ختمتُ هذا العمل بخاتمة أودعتها أهم النتائج التي توصلت إليها . ولا أُريد هنا الإسهابَ في خطة البحث فهذا أتركهُ لمن يتصفح هذه الورقات التي أراها من ضمن الشواهد التي لا حصر لها على علو صرح القرآن الكريم الذي ظل المقياس الأمثل والمعيار الأكمل لرفع أساليب العربية .

ختاماً فهذه دراسة متواضعة تسعى للارتقاء إلى مستوى الطموح لكنها لا تدعي أنها جاءت تحمل الجديد وإنما تعتقد أن باب البحث في هذا الموضوع سيفتح بسبب منها خدمة لكتاب الله . أسأل الله أن يبرد لاعجَ القلب بثلج اليقين وأستغفر الله من كل ما شذ به القلم أو شطح به الفكر أو قصر عنه الفهم .

١ـ أمّا :

قيل إنها مركبة من (إن) الناصبة و(ما) التي للتوكيد أشار سيبويه إلى ذلك فقال : ((فإنما هي (إن) ضمت إليها (ما) وهي (ما) للتوكيد))[1] .

وقيل إنها مركبة من (أم) المنقطعة و(ما) الاستفهامية[٢] . وذهب ثعلب (ت ٢٩٢هـ) إلى أن (أما) في أصلها مركبة من (إن) الشرطية و(ما) حذف فعل الشرط بعدها ففتحت همزتها مع حذف الفعل وكسرت مع ذكره[٣] ، وقد وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ففي قوله تعالى : ﴿ أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل:٨٤) ذكر ابن هشام (٧٦١هـ) أنّ (أمّا) في هذه الآية كلمتان (أم) المنقطعة و(ما) الاستفهامية وأدغمت الميم في الميم للتماثل[٤] وهي حرف شرط وتوكيد دائما وتفصيل غالباً[٥] ، فأما أنها شرط وتوكيدٌ ، فبدليل لزوم الفاء بعدها نحو : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة: من الآية٢٦) .

وأما التفصيل فهو غالب أحوالها ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ (الكهف:٧٩).وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ (الكهف:٨٠) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ (الكهف:٨٢)[٦] .

٢ـ إمّا :

ذكر الخليل (ت ١٧٥هـ) أنّ (إمّا) مركبة من (إن) و(ما) جاء في الكتاب ((وسألت الخليل عن إمّا وإنما وحيثما ، وإما في قولك إما أن تفعل ، وإما أن لا تفعل فقال : هنّ حكايات))[٧] وذكر المبرد (ت ٢٨٥هـ) أن الخليل زعم أنّ (إما) هي (إن) ضمت إليها (ما)[٨] .

وذهب أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) إلى أن (إما) بسيطة لا مركبة ، يقول : ((وقال غير سيبويه ليست (إما) مركبة من (إن) و(ما) ، ولا معنى لـ(إن) هنا ، وهذا المذهب عندي أولى ، لأنّ الأصل البساطة لا التركيب))[٩] وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:٣٨) : ((إنّ شرطية وما زائدة بعدها للتوكيد ، والنون في يأتيكم نون التوكيد وكثر مجيء هذا النحو في القرآن))[١٠] .

وذكر الأخفش (ت ٢١٥هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾ (مريم:٢٦) قوله : ((هي (إن) زيدت معها (ما)))[١١] .

وكثر في القرآن الكريم استعمال تركيب (ما) بعد (إن) الشرطية للتوكيد فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (لأنفال:٥٨) قال الفراء (ت ٢٠٧ هـ) : ((لا تكاد العرب تدخل النون الشديدة ولا الخفيفة في الجزاء حتى يصلوها بـ(ما) فإذا وصلوها آثروا التنوين ، وذلك أنهم وجدوا (إما) وهي جزاء شبيهاً بـ(إما) من التغيير))[١٢] .

٣ـ إنّما :

تتصل ما بـ(إن) فتزيل اختصاصها بالأسماء ، وتجعلها صالحة للدخول على الفعل ، وتسمى حينئذ كافة ومكفوفة ، وذكر سيبويه أنّ (ما) تدخل على (إنّ) الثقيلة فتمنعها عملها ، وتردها إلى الابتداء في قولك : إنّما زيد أخوك[١٣] .

واختلف في (ما) المتصلة بـ(إن) ، فزعم ابن درستويه (ت ٣٤٧هـ) وبعض الكوفيين أن (ما) مع هذه الحروف اسم مبهم بمنزلة ضمير الشأن في التفخيم والإبهام ، وفي أن الجملة بعده

مفسرة لـه ومخـبر عنـه))[١٤] . وردّ ابـن هشـام ذلـك القـول لأنّ (مـا) لا تصلح للابتـداء بهـا ، ولا لدخول ناسخ غير (إن) وأخواتها[١٥] .

وذهب الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) إلى (أنّ) المفتوحـة الهمـزة ، و(إنّ) المكسـورة الهمـزة ، إذا كفا بـ(ما) يفيدان الحصر ، فقال : ((إنما لقصر الحكم على الشيء أو لقصر الشيء على حكم ، كقولك : إنّمـا زيـد قـائم ، وإنّمـا يقـوم زيـد وقـد اجتمـع المثـلان في هـذه الآيـة[١٦] ، لأن ﴿ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ مع فاعله بمنزلة إنّما يقـوم زيد ، و ﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ بمنزلـة إنّمـا زيـد قـائم . وفائدة اجتماعهـا الدلالـة علـى أنّ الـوحي إلى رسـول الله ﷺ مقصـور علـى اسـتئثار الله بالوحدانيـة ..))[١٧] .

وردّ أبو حيان على الزمخشري فقال : ((أما ما ذكره في (إنما) أنهـا لقصـر مـا ذكـر ، فهـو مبني على أن (إنّما) للحصر ، وقد قررنـا أنهـا لا تكـون للحصـر وأنّ (مـا) مـع (أن) كهـي مـع (كأنّ) ومع (لعلّ) فهما لا فكما تفيد الحصر في التشبيه ولا الحصر في الترجّـي فكـذلك لا تفيـد مـع (إنّ) ..))[١٨]

والراجح عند النحويين[١٩] أنّ (ما) مع (إن) إما كافة لأنّها تكـف (إنّ) عـن العمـل نحـو : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَـقَّ إِنَّمَـا الْمَسِيحُ عِيسَـى ابْـنُ مَـرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُـوا ثَلاثَـةٌ انْتَهُـوا خَيْـراً لَكُـمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْـأَرْضِ وَكَفَـى بِاللَّـهِ وَكِـيلاً ﴾ (النساء: ١٧١)

وأما مهيئة لأنها تهيء إن وأخواتها للـدخول علـى الجملـة الفعليـة كمـا في قولـه تعـالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَـى اللَّـهَ مِـنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَـاءُ إِنَّ اللَّـهَ عَزِيـزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر: ٢٨) .

وقد ورد هذا التركيب في القرآن الكـريم وشاع في مواطن كثيرة ، ومـن ذلـك قولـه تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُـوا إِنَّمَـا نَحْـنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (البقـرة: ١١) ، وقولـه تعـالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَـرَ سُـلَيْمَانُ وَلَكِـنَّ الشَّـيَاطِينَ كَفَـرُوا يُعَلِّمُـونَ النَّـاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَـا نَحْـنُ فِتْنَـةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِـهِ مِـنْ أَحَـدٍ إِلَّا بِـإِذْنِ اللَّـهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْـآخِرَةِ مِـنْ خَـلاقٍ وَلَبِـئْسَ مَـا شَـرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٠٢) .

وقد أشار عبـد القـاهر الجرجـاني (ت ٤٧١ هـ) إلى أنّ هـذا التركيـب أدّى وظيفـة جديـدة مـا كانـت تؤديها (إن) منفردة وهي وظيفة التوكيد ، حيث قال : ((لـيس الغـرض مـن قولـه تعـالى : ﴿ إِنَّمَـا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الرعد: من الآية١٩) أن يعلمَ السامعون ظـاهر معنـاه ، ولكـن أن يـذمّ الكفـار ، وأن يقال إنهم من فرط العناد ، ومن غلبة الهوى علـيهم في حكـم مـن لـيس لـه عقـل .. ثـم إنّ العجـب في هذا التعريض الذي ذكرت لا يحصل من دونه (إنّما) فلو قلتَ : يتذكر أُولوا الألباب لم يـدل علـى ما دلّ عليه في الآية))[٢٠] .

٤ـ أيْنَما :

تـدخل (ما) على (أين) فتتحول إلى أداة مركبة وتكون جازمة ، يقول الفـراء : ((إذا رأيـت حروف الاستفهام قد وصلت بـ(ما) .. كانت جزاء ولم تكن استفهاماً))[٢١].

ودخلت (ما) ليتمكن الشرط ويحسن ، يقول ابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ) : ((فـإذا دخلـت (مـا) علـى (أين) و (متى) زادتها إبهاماً ، وازدادت المجازاة بهما حُسناً))[٢٢] .

وقد ورد هذا التركيب في اثني عشر موضعاً في القرآن الكريم[٢٣] ، ورسمت في هذه المواضع تارة متصلة ، وأخرى منفصلة ، فقد وردت متصلة تلميحاً إلى كونها مركبة من (أين) و (ما) ، وتكون في الصورة شرطية ، أما المنفصلة (أين ما) فتكون ظرفية لا شرطية ، قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (آل عمران:١١٢) . والذي يعنيني هو حالة ورود (أينما) متصلة ، وقد وردت في أربعة مواضع هي : قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١١٥) .

وقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ (النساء:٧٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل:٧٦) .

وقوله تعالى : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ (الأحزاب:٦١) .

يقول الزجاج (ت ٣١١هـ) في قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقرة: من الآية١١٥) : ((تولوا جزم بـ(أينما) والجواب فثمّ وجه الله وعلامة الجزم في (تولوا) النون أي حذفها))[٢٤] .

٥ـ أيّاما :

وهي أكثر أدوات الشرط إبهاماً ، وتضاف إليها (ما) فتزيدها إبهاماً[٢٥] .

وقد ورد هذا التركيب في موضعين :

الأول في قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ (الإسراء:١١٠) .

والثاني في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (القصص:٢٨) .

ولعل ما يعزز كونها شرطية قراءة طلحة بن مصرّف ﴿ أيا منْ تدعوه فله الأسماء الحسنى ﴾ حيث جمع بين أداتي شرط على وجه الشذوذ[٢٦] .

وذكر ابن هشام ((أنّ (ما) مضافة لأنّ أسماء الاستفهام وأسماء الشرط والموصولات لا يضاف منها غير (أيّ) باتفاق))[٢٧] .

وبهذا فقد منحت (ما) و(أي) تركيباً جديداً يزيد الإبهام في الشرط .

٦ـ حيثُما :

حيث : اسم مكان مبهم يضاف إلى الجملة ، قال المبرد : ((وحيث اسم من أسماء المكان مبهم يفسّره ما يضاف إليه .. فلما وصلتها بـ(ما) امتنعت من الإضافة فصارت كـ(إذا) إذا وصلتها بـ(ما)))[٢٨] . ولذا لا تكون جزاء إلا إذا ضمّت إليها (ما) لتكون مبهمة ، وذكر سيبويه أن (حيث) لم تكن قبل تركيبها مع (ما) أداة للجزاء ، قال : ((.. ولا يكون الجزاء في حيث ، ولا في حتى يضم إلى كلّ واحد منهما (ما)))[٢٩] .

وقد وردت (حيثما) في القرآن الكريم في موضعين ، الأول في قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

(البقرة:١٤٤) . والثاني في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٥٠) .

يرى ابنُ حيّان أنّ (حيث) هنا ظرف مكان يفيد العموم في الأماكن ، تضاف إلى الجملة التي تليها ، فهي مقضية الخفض بعدها ، وتابعه في ذلك ابن يعيش حيث قال : ((كل الظروف التي يجازى بها يجوز أن يجازى بها من غير أن يُضَمَّ إليها (ما) ما خلا حيثما وأختيها))[٣٠] .

والفرق بينها وبين (أينما) : أنّ (أينما) أكثر إبهاماً وعموماً والذي يدل على ذلك الاستعمال القرآني علاوة على القياس لأنّ الشمول والعموم الذي يحس مع (أينما) أكثر من (حيثما) ، ويوضح ذلك قوله تعالى : (أينما يوجهه لا يأتي بخير) فلو قال : (حيثما يوجهه لا يأتي بخير) لتعين ذلك في المكان المادي المحسوس ولكن قوله (أينما) يوحي بالسعة والشمول[٣١] .

٧ـ رُبّما :

تدخل (ما) على (رُبّ) فتكفها عن عمل الجر ، وهي مركبة من (ربّ) و (ما) ، قال سيبويه : ((.. ومن تلك الحروف (ربّما) و (قلّما) وأشباههما ، جعلوا (رُبّ) مع (ما) بمنزلة كلمة واحدة ، وهيّئوها ليذكر بعدها الفعل))[٣٢] .

وقد ورد هذا التركيب في آية واحدة من آيات القرآن الكريم : : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (الحجر:٢)

يقول ابن عصفور (ت ٦٦٩هـ) : ((وتدخل – أي ربما – على الفعل الماضي لفضاً ومعنى ، ومعنى دون لفظ ، فأمّا قوله تعالى : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (الحجر:٢) فلصدق خشية الوعد وقرب الدار الدنيا من الآخرة ، جعل المستقبل كأنه وقع))[٣٣] .

وقال ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) : ((والصحيح أنّ ما يُصدر بـ(رُبّ) لا يلزم كونه ماضي المعنى بل يجوز مضيّه وحضوره واستقباله))[٣٤] .

واستبعد ابن هشام ذلك ووصف القائلين بهذا الرأي بالتكلّف واشترط في دخول (ربما) على الجملة الفعلية أن يكون الفعل ماضياً لفظاً ومعنى[٣٥] .

والذي أراه في هذا الميدان أن دخول (ربما) على الفعل المضارع تجعل الأمر كأنه وقع ، وهو أسلوب يشهد بصحته الاستعمال القرآني ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (الزمر:٦٨) وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ (النبأ:١٨) .

٨ـ كلّما :

مركبة من (كلّ) المؤكدة التي أضيفت إلى (ما) المصدرية الظرفية[٣٦] .

يرى سيبويه أنّ (كلّما) مركبة من (كل) و(ما) المصدرية الظرفية ، يقول : ((ومثل ذلك : (كلّما تأتيني آتيك) فالإتيان صلة لـ(ما) ، كأنه قال : كل إتيانك آتيك ، و(كلما تأتيني) يقع على الحين كما كان (ما تأتيني) يقع على الحين ، ولا يستفهم بـ(كلّما)، كما لا يستفهم بـ(ما تدوم)))[٣٧]

ويرى الرضي (ت ٦٨٦ هـ) أنّ (ما) في (كلّما) إلى جانب كونها تكفّ (كل) عن طلب مضاف إليه مفرد هي تفيد العموم والاستغراق ، يقول : ((يطّرد في (كلّما) مجيء (ما) الكافة لتكفّه عن طلب مضاف إليه مفرد ، وتقدير زمان مضاف إلى الجمل فـ(كلّما) إذن زمان مضاف إلى الجملة لأنّ (كلاً) و(بعضاً) من جنس ما يضافان إليه ، زماناً كان أو مكاناً أو غيرهما ، ولما في (كلّما) من معنى العموم والاستغراق))[٣٨] .

وقد ورد هذا التركيب في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعاً[٣٩] ، ويكثر مجيء الماضي بعدها .. نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (النساء:٥٦) . ونحو قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (هود:٣٨)

ونحو قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة:٢٥) .

ولم يذكر النحاة (كلّما) في أدوات الشرط الجازمة لأنها ليست منها ، وإنما ذكرها الفقهاء لثبوت معنى الشرط معهما ودخول (ما) على (كلّ) تفيد معنى العموم[٤٠] والاستمرار فلا تتوقف على زمن معين[٤١] .

٩ـ لَوْما :

(لوما) حرف امتناع لوجود وتحضيض ، ويشبه (لولا) في الاستعمال والشروط ، وهي مركبة من (لو) التي تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره ، و(ما) قال سيبويه : ((و(ما) في (لما) مغيرة لها عن حال (لم) كما غيرت (لو) إذا قلت : لوما ونحوها))[٤٢] .

وذكر الرماني (ت ٣٨٤ هـ) تركيب لوما ، حيث قال : ((وهي من الحروف الهوامل ، ومعناها التحضيض ، وهي مركبة من (لا) و (ما)))[٤٣] . وذكر ابن يعيش أنّ لوما مركبة من (لو) و (ما)[٤٤] .

وإذا دخلت (لوما) على الفعل الماضي أفادت معنى التوبيخ ، وإن دخلت على الفعل المضارع أفادت معنى التحضيض[٤٥] .

وقد ورد هذا التركيب في آية واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (الحجر:٧) . وقد أفادت (لوما) المركبة في هذه الآية معنى التحضيض إذ إنّ (ما) إذا لحقت (لو) غيرته عن حاله وحولته إلى المعنى (هلا) ولذا تُسمى (المغيِّرة)[٤٦] .

١٠ـ مَهْما :

أداة شرط جازمة ومركبة ، وقد اختلف في أصل تركيبها فذهب الخليل إلى أنها مركبة من (ما) الشرطية و (ما) الزائدة ، جاء في الكتاب ((وسألت الخليل عن (مهما) فقال : هي (ما) أدخلت معها (ما) لغواً بمنزلتها مع (متى) إذا قلت : (متى تأتني آتك) ، وبمنزلتها مع (إنْ) إذا قلت (إنْ ما تأتني آتك) ، وبمنزلتها مع (أين) كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ .. ﴾ ولكنهم استقبحوا أن يكرروا لفظاً واحداً فيقولوا (ماما) فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى))[٤٧] ، ووافقه في ذلك أبو علي الفارسي . (ت ٣٧٧هـ) ، وابن يعيش .

وذهب الأخفش وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) والزجاج إلى أنّ (مهما) مركبة من (مه) اسم فعل بمعنى (اكفُفْ) زيدت عليه (ما) فحدث بالتركيب معنى لم يكن[٤٨] .

وقد ورد هذا التركيب في القرآن الكريم في آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (لأعراف:١٣٢) ، وهي اسم بدليل عود الضمير إليها ، قال الزمخشري : ((عاد عليها ضمير (به) وضمير (بها) حملا على اللفظ وعلى المعنى))[٤٩] .

وزعم السهيلي أنها تأتي حرفاً بدليل قول زهير[٥٠] :

ومهما تكنْ عند امرئ من خليقةٍ وإنْ خالها تخفى على الناسِ تُعلَمِ

قال : ((فهي هنا حرف بمنزلة (إنْ) ، بدليل أنها لا محل لها من الإعراب))[٥١] ، ومذهب جمهور النحاة أنها اسمٌ ، واستدلوا على ذلك بعود الضمير عليها في الآية المذكورة آنفاً فالهاء من (به) عائد على (مهما) والضمير لا يعود إلا على الأسماء[٥٢] .

وقال الآلوسي : ((مهما : اسم شرط لا حرف على الصحيح ، ومحلها الرفع هنا على الابتداء ..))[٥٣]

والذي نميل إليه في هذا التركيب ما ذهب إليه جمهور النحاة من أنَّ (مهما) اسم .

الخاتمة .

بعد هذا التجوال في القرآن الكريم يمكن الخروج بنتائج لعل أهمها :

١ـ إذا وقعت (ما) بعد شرط جازم ، أو غير جازم تأخذ معنى الشرط ، فإذا حذفناها يبقى الشرط قائماً فيهما مما يدل على أنها ركبت لتأكيد معنى الشرط .

٢ـ (ما) إذا ركبت مع (أين) فإنها تدل على الظرفية فضلاً عن الشرطية .

٣ـ إذا اتصلت (ما) الكافة بـ(إن) تتجرد عن معانيها الأصلية لتكسب معنى جديداً يؤكد معنى ما يتصل به من الكلمات .

٤ـ (أينما) أكثر إبهاماً وعموماً من (حيثما) يؤيد ذلك الاستعمال القرآني .

٥ـ إذا لحقت (ما) الشرط الامتناعي (لو) غيرته عن حالته ، وحولته إلى معنى (هلاّ) دلالة على التحضيض .

٦ـ الراجح في (مهما) أنها اسم ، وليست حرفاً .

ـ الهوامش ـ

(١) الكتاب ١/ ٢٩٣ .

(٢) ينظر : مغني اللبيب : ٨٤ ، والبرهان في علوم القرآن ٤/ ٢٧١ .

(٣) ينظر : الجنى الداني : ٤٨٢ .

(٤) مغني اللبيب : ٨٤ .

(٥) ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٢٥٢ ، وشرح ابن عقيل ٢/ ٣٩٠ .

(٦) ينظر : مغني اللبيب : ٨٢ ، والتأويل النحوي في القرآن الكريم : ١٨٢ .

(٧) الكتاب ٣/ ٢٣١ .

(٨) ينظر : المقتضب ٣/ ٢٨ .

(٩) ارتشاف الضرب ٢/ ٦٤٣ .

(١٠) البحر المحيط ١/ ١٦٧ .

(١١) معاني القرآن ١/ ٦٨ ، وينظر : مغني اللبيب : ٨٧ .

(١٢) معاني القرآن ١/ ٤١٤ .

(١٣) ينظر : الكتاب ٣/ ١٣٠ ، ٤/ ٢٢١ ، والنحو المصطفى : ٤١٧ .

(١٤) ارتشاف الضرب ٢/ ١٥٧ .

(١٥) ينظر : مغني اللبيب : ٤٠٤ .

(١٦) يعني قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (الانبياء:١٠٨) .

(١٧) الكشاف ٣/ ١٣٩ .

(١٨) البحر المحيط ٦/ ٣٤٤ .

(١٩) ينظر : مغني اللبيب : ٤٠٥ .

(٢٠) دلائل الإعجاز : ٣٣١ .

(٢١) معاني القرآن ١/ ٨٥ .

(٢٢) شرح المفصل ٤/ ١٠٦ .

(٢٣) ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ١٣٩ .

(٢٤) معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٩٧ .
(٢٥) ينظر : مغني اللبيب : ٣٦٤ ، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٢٥٣ .
(٢٦) ينظر : البحر المحيط ٦/ ٩٠ .
(٢٧) ينظر مغني اللبيب : ٣٩٥ .
(٢٨) المقتضب ٢/ ٥٤ .
(٢٩) الكتاب ٣/ ٥٨ ، وينظر : شرح شذور الذهب : ١٤٢ .
(٣٠) شرح المفصل ٧/ ٤٦ ، وينظر : البحر المحيط ١/ ٤٢٩ ، ومغني اللبيب : ١٧٨ .
(٣١) ينظر : معاني النحو ٤/ ٤٦٢ .
(٣٢) الكتاب ٣/ ١١٥ .
(٣٣) المقرب : ٢٢٠
(٣٤) شواهد التوضيح والتصحيح : ١٦٥ .
(٣٥) ينظر : مغني اللبيب : ١٨٠ .
(٣٦) ينظر : البحر المحيط ١/ ٩٠ .
(٣٧) الكتاب ٣/ ١٠٢ .
(٣٨) شرح الكافية ٢/ ١١٤ .
(٣٩) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٦١٨-٦١٩ .
(٤٠) الشرط والجزاء من مباحث الإيمان : ١٩٣ (بحث)
(٤١) النحو المصطفى : ٣٩٤ .
(٤٢) الكتاب ٤/ ٢٢٣ .
(٤٣) معاني الحروف : ١٢٤ .
(٤٤) ينظر : شرح المفصل ٨/ ١٤٤ .
(٤٥) ينظر : شرح ابن عقيل ٢/ ٣٩٤ .
(٤٦) ينظر : مغني اللبيب : ٢٦٤ .
(٤٧) الكتاب ٣/ ٥٩ ، وينظر : تأويل مشكل القرآن : ٥٣٢ .
(٤٨) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٥٣٢ ، والجنى الداني : ٥٢٢ ، وارتشاف الضرب ٢/ ٥٤٧ .
(٤٩) الكشاف ٢/ ١٤٦ .
(٥٠) ديوانه : ٨٨ ، وينظر : مغني اللبيب : ٤٣٥ .
(٥١) مغني اللبيب : ٤٣٥ .
(٥٢) ينظر شرح الكافية ٢/ ٢٥٣ ، وشرح شذور الذهب : ٣٥٨ .
(٥٣) روح المعاني ٩/ ٣٣ .

. المصادر والمراجع .

١. ارتشاف الضرب من لسان العرب ، لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٥٤هـ) ، تحقيق : د . مصطفى أحمد النحاس ، مطبعة المدني – مصر ، ط١ ١٩٨٧م .
٢. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لأبي هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) ، دار العلوم الحديثة ، بيروت ، ١٩٨٢م .
٣. البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي ، مكتبة النصر الحديثة – الرياض .
٤. البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٩٨٨م .
٥. تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، تحقيق : أحمد صقر ، بيروت ، ١٩٨١م .
٦. التأويل النحوي في القرآن الكريم ، د. عبد الفتاح أحمد الحموز ، مكتبة الرشد – الرياض ، ط١ ١٩٨٤م .
٧. الجنى الداني في حروف المعاني ، حسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ) ، تحقيق : طه محسن ،

مؤسسة الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٩٧٦م .
٨. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، تحقيق : محمد رضوان الدايه ، د. فائز الدايه ، ط٢ دمشق ، ١٩٨٧م .
٩. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، بهاء الدين عبد الله بن عقيل (ت ٧٩٦ هـ) ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت .
١٠. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، لابن هشام ، تحقيق : الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م .
١١. شرح المفصل ، موفق الدين بن يعيش (ت ٦٤٣هـ) عالم الكتب - بيروت .
١٢. شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ، ابن مالك الأندلسي (ت ٦٧٢هـ) تحقيق : د. طه محسن ، دار آفاق عربية - الموصل ، ١٩٨٥م .
١٣. الكتاب ، لأبي بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي - القاهرة ط٢ ، ١٩٨٢م .
١٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) دار المعرفة - بيروت .
١٥. معاني القرآن ، لأبي الحسن الأخفش (ت ٢١٥ هـ) ، تحقيق : د. فائز فارس ، ط ٢ ، الكويت ، ١٩٨١م .
١٦. معاني القرآن ، لأبي زكريا الفراء (ت ٢٠٧هـ) ، عالم الكتب - بيروت ، ١٩٨٣م .
١٧. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث - مصر ١٩٨٨م .
١٨. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام الأنصاري ، تحقيق : د. مازن المبارك وحمد علي حمد الله ، دار الفكر - بيروت ط٦ ، ١٩٨٥م .
١٩. المقتضب ، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد (ت ٢٨٥هـ) ، تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة
عالم الكتب - بيروت ، ١٩٨٢م .
٢٠. المقرّب ، لابن عصفور الاشبيلي (ت ٦٦٩هـ) تحقيق : د. أحمد عبد الستار الجواري ، د. عبد الله الجبوري ، مطبعة العاني - بغداد .
٢١. النحو المصطفى ، د. محمد عيد ، مكتبة الشباب - القاهرة ، ١٩٨٥م .